الشيخ أحمد زروق
دفين مصراته

للأستاذ عبد الله كنون
طنجه - المغرب

اسمه ونسبه :

هو أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي عرف بزروق ، أحد كبار الفقهاء والصوفية المشهورين في العالم الاسلامي. نسبه في عداد قبيلة البرانس المغربية ، وهو بفتح الباء وسكون الراء وضم النون ، وأما لقبه زروق فهو بفتح الزاي وراء مشدودة مضمومة، وقال فيه المترجم نفسه على ما نقل من كناشته « إنما جاءني من جهة الجد ، كان أزرق العينين واكتسبه من أمه ، قال وكانت شريفة لكنني لم أتحقق نسبها لموت أبي وشرف المرء انما هو سلامة دينه وحليته ومروءته ولا شرف أكبر من تقوى الله (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) ...»

ولادته ونشأته :

ولد زروق يوم الخميس ١٨ محرم ٨٤٦ عند طلوع الشمس، وتوفيت أمه يوم السبت بعده ، وأبوه يوم الثلاثاء الموالي ، قِيلَ وكان والده سماه محمداً فلما توفي قبل سابعه سمي أحمد باسم والده .

وكانت جدته الفقيهة الصالحـــة أم البنين هي التي كفلته بعد وفاة والديه وربته تربية حسنة فحفظ القرآن وهو ابن عشر سنين ، ثم تعلم صناعة الخرز على العادة في أبناء الفقراء فانهم يُحمَلون على تعلم صناعة ما ليستعينوا بها على كسب معيشتهم ، ويظهر ان والده لم يخلف له مالاً، كما أنه لم يكن من أهل العلم ، وربما استفدنا مهنته من قول ابنـــه في طالعة نظمه لفصول السلمي :

يقول راجي رحمة الغفار أحمد نجل أحمد الخضار
البرنسي الأصل ثم الفاسي المشتهر زروق بين الناس

هكذا ثبت وصف الخضار في نسخة صحيحة جيدة عندنا من هذا النظم بنقط الخاء والضاد وهو وصف يطلق على بائع الخضر فتكون تلك هي مهنتـــه . وفي نسخة أخرى دونها صحة وجودة (الحضار) بالحاء المهملة وكنا نظنها مصحفة حتى أفادنا صديقنا العلامة السيد أحمد السمار الشفشاوني الذي أقام بقبيلة البرانس مدة طويلة ويعرفها جيداً ان الحضّار بالتخفيف اسم وادي يجري بالقرب من قرية تِليوان بكَسْر أوله وثانيه وهي مَولِدُ المترجم ومدفن والده في القبيلة المذكورة وعليه فقد تكون النسخة الثانية هي الصحيحة. والحضّار بالتشديد صيغة نسب للوادي المذكور، وزاد الفقيه السمار ان على قبر والده بناية أنيقة تشتمل على مسجد جامع ومكان لسكنى الإمام وتعرف بزاوية سيدي أحمد زروق ولها أوقاف وان

ضريح والده يحظى بتعظيم واحترام من أهل القبيلة مما يدل على انه كان من أهل الولاية والصلاح .

ومع ذلك فنحن نظن ان هذه الزاوية انما بنيت بعد اشتهار أمر المترجم وان والده لو كان من أهل العلم لوقعت الاشارة الى ذلك في ترجمة ابنه .

طلبه للعلم ومشيخته :

وعلى كل حال فإن مترجمنا لم يتماد في صنعة الخرازة وقد أراد الله به خيراً حين أهّله لطلب العلم وهو في سن السادسة عشرة كما قال : « ثم نقلني الله بعد بلوغي سادس عشر الى القراءة فقرأت «الرسالة» على الشيخين علي السطي وعبدالله الفخار قراءة بحث وتحقيق ، ـ والقرآن على جماعة منهم القوري والزرهوني، وكان رجلاً صالحاً والمجاصي والأستاذ الصغير بحرف نافع ، واشتغلت بالتصوف والتوحيد فأخذت الرسالة القدسية وعقائد الطوسي على الشيخ عبد الرحمن المجدولي وهو من تلاميذ الأُبّي وبعض التنوير على القوري وسمعت عليه البخاري كثيراً وتفقهت عليه في كل أحكام عبد الحق الصغري وجامع الترمذي وصحبت جماعة من المباركين لا تحصى كثرة بين فقيه وفقير » .

هذه نشأة زروق الأولى وتربيته البيتية والعلمية التي تشبه الى حد ما تربية صديقه وقرينه ابن غازي ، فإن كلاً منهما نشأ في حضن امرأة صالحة عملت على توجيهه توجيهاً نافعاً ظهر أثره في سيرته المثالية وحياته العلمية الناجحة ، ولقد كانت والدة ابن غازي تكفل ولدها من الناحية التربوية فقط ، أما الناحية المادية فوالده كان كفيلاً بها ، في حين ان جدة زروق كانت تكفل حفيدها من الناحيتين التربوية والمادية معاً : لأن والده لم يترك له ثروة يعيش بها ولذلك حملته على تعلّم الصنعة بعد

حفظ القرآن الكريم ، ثم ما لبث ان عاد سيرة جدته من طلب العلم والتفقه في الدين . وكانت جدته كما علمت فقيهة صالحة وبذلك تعلم ما للمرأة المتعلمة من الأثر القوي في اصلاح المجتمع وتقويم خلق النشء حتى قيل : الأم هي المدرسة الأولى .

رحلته الى المشرق والسبب فيها :

ثم ان هؤلاء الأعلام الذين ذكرهم المترجم هم مشيخته الذين أخذ عنهم بفاس في أول أمره وقد أخذ عن غيرهم بعد ذلك بها وبغيرها من مدن المشرق والمغرب لأنه كان كثير التجول في البلاد الإسلامية وحج وجاور بالمدينة المنورة وأقام بمصر زمناً للافادة والاستفادة فأخذ عن أعلامها الكبار وأخذ عن كثير ممن يشار اليه من أهلها ، وممن سمي من شيوخه بين مغاربة وأفارقة ومصريين غير من ذكر : العلامة السراج الصغير وأحمد بن سعيد الحباك وأبو مهدي عيسى الماواسي وعبد الرحمن الثعالبي وابراهيم التازي والمشذالي وحلولو والرصاع والسنوسي وابن زكري التلمساني والتنسي ونور الدين السنهوري والحافظان السخاوي والديمي وأبو العباس ابن عقبة الحضرمي وشهاب الدين الابشيطي وهما من مشايخ الصوفية والأول هو عمدته في طريق السلوك .

وقد ذكر ابن غازي في فهرسته ان المترجم استجاز له بمصر الحافظين السخاوي والديمي فأجازاه وذلك سنة ٨٨٥ .

ومنه تعلم ان رحلته كانت علمية وانه كان على صلة بأصدقائه وزملائه في المغرب اثناءها بكاتبهم ويمكّن للعلاقات الأدبية بينهم وبين علماء المشرق ، وقد شملت الاجازة التي طلبها لابن غازي من حافظي مصر المذكورين ، غير ابن غازي من مشائخه وأقرانه كأبي مهدي الماواسي وأبي العباس الونشريسي وقاضي الجماعة محمدبن محمد بن عيسى بن علال

المصمودي ، فماذا تبتغي من نشاط علمي أكثر من هذا ؟...

ولكن القوم الذين اصطدم بهم في حياته وأنكـــر عليهم كثيراً من الأحوال التي لا يقرها الشرع أبوا الا أن يصوروا رحلته بصورة قاتمة ويخرجوه من المغرب في صفة طريد لا يقر له قرار الى أن يتراجع عن انكاره ويسلم قياده الى رجل من أهل التصرف في الغيب فيدخـــل في جواره ويأمن حينئذ على نفسه، وهاك نص الحكاية على ما عند ابن عسكر في الدوحة قال :

« حدثني شيخنا أبو الحجاج يوسف بن عيسى وغيره ان الشيـــخ أبا العباس (يعني صاحب الترجمة) صحب الشيـــخ أبا عبدالله محمد الزيتوني ، وكان رجلاً أعمى ، وكان من رجال التصرف فتوغل صاحب الترجمة في محبته وادعى فيها قصب السبق فكان من امتحانه في ذلك ان جاء زائراً له فدق الباب عليه فسمع صوتاً بالاذن فدخل الدار فلم يجد أحداً فصعد الى غرفة في أعلى الدار فوجد الشيخ جالساً في وسط الغرفة وعن يمينه امرأة متزينة وعن يساره أخرى وهو يلتفت الى هذه ويقبّلها ويقبل عليها ويرجع الى الأخرى كذلك فقال أبو العباس ان هذا الرجل من الزنادقة وولى راجعـــاً فناداه الشيخ الزيتوني : يا أحمد الكذاب ، ارجع ، فرجع مسرعاً فلم يجد أحداً ، فعلم انه امتحنه . فقال له الشيخ الزيتوني : أما التي رأيت عن يميني فهي الآخرة وأما التي عن يساري فهي الدنيا ، وأنت كاذب في دعواك ولكنك لا تبقى في المغرب ساعة واحدة . فخرج الشيخ أبو العباس من حينه وتوجه الى المشرق مشفقاً على نفسه مما اتفق له حتى انتهى الى الديار المصرية فوجد أصحاب الشيخ أحمد بن عقبة الحضرمي ينتظرونه على ضفة النيـــل لأن شيخهم المذكور أمرهم بذلك وأخبرهم بقدومه فسلّموا عليه ورحبوا به وحملوه معهم ، فلما دخل على الشيخ ابن عقبة وسلّم عليه قال له : يا أحمد ، يا ولدي، ما جرأك على الأفعى العمياء ؟ واني لمشفق عليك منه ها هنا ، فحمله

الى بيت عنده وأمره بلزوم الذكر فبعد ثلاثة أيام سمع الشيخ ابن عقبة رجة عظيمة وهو مع أصحابه ، فصاح « الله » ورفع يده ثم قال : قوموا بنا الى صاحبكم فقاموا اليه فوجدوا البيت الذي كان فيه أبو العباس قد صار دكاً فقال ابن عقبة : احفروا على صاحبكم فحفروا عليه الى أن وجدوه في ركن البيت وقد طاحت الخشب فخيمت عليه فرفع عنه الردم وقد أنجاه الله منه ، فلما أبصره الشيخ ابن عقبة قال له : الحمد لله الذي عصمك منه ، يا أحمد ، هذه آخر عقوبة الزيتوني ولقد ضربك ضربة من أقصى المغرب فدفعتها عنك بيدي ، وها هي مكسورة من ضربته ، وأخرجها من تحته مكسورة ، ثم لازمه الى أن انفصل عنه فقال له : « اوصني يا سيدي » ، فقال له منشداً :

سلم لسلمي وسر حيث سارت
واتبع رياح القضا ودر حيث دارت

وقد حكى هذه القصة غير ابن عسكر وزاد فيها بعضهم انه لما خرج من عند شيخه الزيتوني ألقي عليه شبه اليهود فصار الناس يتجنبونه ولا يرون فيه إلا يهودياً حتى شفع له بعض أحبابه عند الشيخ فعفا عنه بشرط أن يخرج من المغرب .

رد تقولات عنه :

ونحن لا نرى في هذه الحكاية إلا تنقيصاً من قدر زروق لتوطيد أركان التدجيل الذي كان يحاربه ، ومن ثم كانت نهايتها (سلم لسلمي) وإلا فالرجل رحل لطلب العلم وللأخذ عن الشيوخ كما رحل ويرحل كثير غيره من علماء المغرب وطلبته وقد استجاز الأكابر لنفسه ولغيره

من مشائخه وأقرانه على ما سبقت الإشارة اليه ، وقال ابن العماد انه أقام بمصر سنة واشتغل فيها بالعربية والأصول على الجوجري وغيره وأخذ الحديث عن السخاوي ثم غلب عليه التصوف ، فميله إلى التصوف متأخر عن اشتغاله بالعلم حتى في مصر بعد رحلته ، ولو كان جاء اليها طريداً بالصفة التي ذكروها لما بقي له في الاشتغال بالعربية والأصول مأرب ، ولا في استجازة مشايخ الحديث له ولغيره من علماء المغرب مطلب ، وعلى كل حال فان التزيد في هذه الحكاية ظاهر وهي ان كان لها أصل فهو ما يتوافق مع روح زروق العلمية من الإنكار على أهل الدّعاوي الباطلة وتحكيم الأصول فيما يعرض من أحوال أهل الطريق، ولعل زروقاً وقع له مع شيخه الزيتوني خلاف من هذا القبيل فنسج خيال المُخَرِّفين حوله هذه القصة .

وان مما يزيدها بطلاناً ان زروقاً لم يتراجع قط عن إنكاره على المدعين ولم يزدد إلا حسبة في محاججة المبطلين ، ولقد عاد من رحلته هذه إلى فاس فكان أول ما بدأ به مستقبليه من أهل العلم الإنكار عليهم فيما يتناولونه من أسباب العيش ، ولو كان خرج من فاس بسبب الإنكار تلك الخرجة المنكرة وأوصاه شيخه الحضرمي في آخر ما أوصاه به ، بالتسليم لسلمي لكان حرياً أن يسكت وأن يغض الطرف على القذى مهما كان الأمر ،ولكن الأمر بالعكس فان الرجل خرج ليمتلىء بالعلم وليتقوى في الدين فلم ينكص على عقبيه في علم ولا عمل وهذه حكايته مع علماء فاس على ما عند ابن عسكر أيضاً وعنه رواها غيره قال : « حدثني الفقيه القاضي أبو عبدالله الكراسي الأندلسي قال : لما قدم الشيخ زروق قافلاً من البلاد المشرقية خرج الفقهاء إلى لقائه قال وأنا كنت في جملة من خرج معهم فلما سلمنا عليه وجلسنا في خبائه صار يسأل الفقهاء عن أسباب أقواتهم فقال بعضهم معظم القوت من الأوقاف المحبسة على قبور الموتى : فقال الشيخ : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ،

تعيشون من لحوم الموتى ؟ فأجابه الفقيه ابن الحباك بأن قال : يا سيدي الحمد لله الذي جعلنا نقتنص من لحوم الموتى وهي مسوغة عند الضرورة في الشريعة ولم يجعلنا نقتنص من لحوم الأحياء الممنوعة من كل وجه . فصاح الشيخ مغشياً عليه . فخرجنا عنه وتركناه كذلك » .

فأنت تراه كيف سألهم عن أسباب عيشهم اهتماماً بالأصل الأصيل في سلامة الدين وهو أكل الحلال ولما أخبروه بادرهم بالإنكار على ما رضوا به من العيش على الصدقات ثم لما أجابوه وكان للجواب وجه من الشرع لم يتمالك أن أخذته حال من الخشية اتهاماً لنفسه على عادة أهل المواجد من محققي الصوفية ، وهكذا يكون زروق في كلا حاليه: حال الإنكار وحال التسليم ـ موافقاً للشرع عاملاً بمقتضى العلم الذي جمله الله به .

محتسب العلماء والأولياء :

ومن ثم أطلق عليه علماؤنا رحمهم الله « محتسب العلماء والأولياء » وهي صفة جليلة ضخمة لم يظفر بها غيره من علماء الاسلام لا فيما قبله ولا فيما بعده . وانما المحتسب القائم بالحسبة ذلك الوظيف الشرعي الممتاز الذي يعم اختصاصه ويشمل كل الوظائف الشرعية حتى الخلافة العظمى والقضاء : أليست مهمته هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ ويقول علماؤنا رحمهم الله ان المحتسب إذا مر بباب الأمير أو القاضي ووجد الناس مجتمعين حوله ينتظرون خروجه ، فان عليه أن يدخل اليه ويخرجه للناس لأن تركهم ينتظرون من المنكر وخروجه اليهم من المعروف، فيد المحتسب اذن مبسوطة على كل ذي منصب شرعي كبر شأنه أو صغر عظم أو حقر ، ولا يد أعظم منها بهذا الاعتبار إلا يد زروق التي بسطها علماؤنا على صفوة الصفوة من أهل الاسلام باطلاقهم عليه «محتسب

العلماء والأولياء » وذلك لما رأوه متتبعاً لأقوالهم وأعمالهم وازناً لها بميزان الشرع فيصحح منها ما صح ويبطل ما بطل ، ولما تحققوا من رسوخ قدمه في الفقه وعلو مقامه في التصوف من غير أن يحيف فقهه على تصوفه ، فينكر المقامات والأحوال أو يطغي تصوفه على فقهه فيهمل الشعائر والرسوم .

رأي ابن عجيبه ومناقشته :

على ان هذه التحلية لم ترق فيما يظهر بعض أئمة الصوفية ، فهذا الشيخ أحمد بن عجيبة يقول في أول شرحه لنونية العارف الششتري : « وقد سبق إلى شرحها الشيخ العلامة الصوفي أبو العباس سيدي أحمد زروق رضي الله عنه ،اقتصر فيه على حل ألفاظها وبيان ما يتعلق ببعض معانيها غير انه لم يغص في تيار بحر أسرارها على غوائص أنوارها ولا فض خاتم أسرارها ولا دخل بعرائس أبكارها ، ولعله شرحها قبل أن يفتح عليه في أسرار الحقيقة فقد كان شيخ شيوخنا سيدي علي العمراني رضي الله عنه يقول ما فتح على الشيخ زروق الا في آخر عمره بحيث لم يؤلف شيئاً بعد الفتح والله أعلم، وكتبه شاهدة بذلك اذ الكلام وصف المتكلم ومن تكلم عرف من ساعته فهو في علوم الطريقة إمام ، وأما في علوم الحقيقة وأسرار الأذواق فلم ينل منها شيئاً الا في آخر عمره كاد أن يخرج منها صفر اليدين . ولذلك كثر اعتراضه على أهل النسبة وظهر في كلامه التشديد والتضييق عليهم ، ولقد رأيته في نوم كاليقظة فقلت له قد شددت على أهل النسبة في حقيقة المريد . فقال: وما قلت فيها؟فقلت له قلت كذا وكذا وذكرت له بعض ما انتقد به عليهم وما شدد . فيه فقال ذلك الذي يناسب مذهب مالك فقلت له الصوفي الحقيقي لا يقلد مالكاً ولا غيره بل يأخذ الشريعة من أصلها والحقيقة من

معدنها فقال من بلغ هذا أو صحب من بلغ هذا لا يتكلم معه. فقلت له والله لقد بلغناه وصحبنا من بلغه فغاب عني ، وكان بعض مشايخنا من الفقهاء يقول الشيخ زروق محتسب الصوفية. قلت انما يكون محتسب صوفية أهل الظاهر أهل العبادة الظاهرة والتنسك الظاهر أما أهل التربيـة والسر الباطن فلا حسبة له عليهم اذا لم يحط علماً بما عندهم. ولقد سمعت شيخ مشايخ التربية في زمانـه مولاي العربـي الدرقاوي الحسني رضي الله عنه يقول الشيخ زروق عند أهل الظاهر شيء كبير وعند أهل الباطن شيء صغير :

لا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

ومراتب الأولياء كطبقات الجنان الأعلى يعرف الأسفل دون العكس والله أعلم » .

هذا كلام ابن عجيبة في زروق ورأيه بخصوص اللقب الذي أطلقه عليه العلماء ، ونحن لا نخوض في الرد عليه ولا في ابطال ما ذهب اليه ولنعط الكلمة لزروق فإنه أولى بالدفـاع عن نفسه . واليك ما قاله في هذا الصدد بآخر شرحه لحزب البحر في التنبيه الرابع :

« قد أولع كثير من فقـــراء الوقت بعلوم الأسرار ودقائق الأذواق ورقيق كلام القوم دون اعتناء بأحكام العبودية وآداب الربوبية فانصرفوا عن المراد ، وفارقوا موجبات الوداد وحصل لهم التعريف في عين ادعاء السداد ، ومنهم من تسري فيه لذة فهم الكلام فيظنه ذوقاً وربما ادعاه حالاً لنفسه فكان طـرداً ، فحق الصادق أن يشتغل بمـــا به كماله من التخلق والتعلق مع الإعراض عن الأعراض، قال ابن عطاء الله في الحكم (تشوفك الى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوفك الى ما حجب عنك من الغيوب). وقد قالوا: اذا تكلم المريد في مقام لم يبلغه حاله حرم

مناله اذ صار فيه صاحب علم ثم لا يأمن ضلاله به أو ان يتيه في بعض رموزه ان كان يأخذه من كلام الناس) الخ .

على ان ابن عجيبة بكثرة ما ينقل من كلام زروق في شرح النونية وغيره ، يبرهن على انه لا غنى له من الاغتراف من بحره ، وان ما قاله فيه إنما هو شطحة من شطحات الصوفية صدرت منه لما رأى شدة انكار زروق على أهل الطريقة أو هو مدح لشرحه على مـــا جرت به عادة المؤلفين من تنكيت المتأخر على المتقدم كما قال ابن مالك في الفيته:

فائقة الفية ابن معط

فجاء السيوطي بعده فقال :

فائقة الفية ابن مالك

والواقع انه لم يكن لكلام ابن عجيبة أثر في الأوساط العلمية بالنسبة لاطلاق هذا اللقب على زروق ، فما زال علماؤنا رحمهم الله ، وجلهـم ان لم نقل كلهم ممن لهم جنوح الى التصوف وتعلق بسبب منه ، يحلونه بتلك التحلية ويصفونه بتلك الصفة ، وانما قلنا ان جلهم أو كلهم ممن ينتمي الى التصوف لأن المعروف عن أهل القرن العاشر فمن بعـده انهم مالوا بكليتهم الى سلوك الطريق ، ومن لم يمـل منهم الى ذلك بالقلب والقالب فلا بد من أن يظهر هـــذا الميل ، مداراة عن نفسه لما صار للطرق من الصولة والجاه وعظم النفوذ . ولهذا قل ان قام في العصور المتأخرة ناقد صوفي من طراز زروق حتى انبلج فجر النهضة الحديثة .

والمقصود ان هؤلاء العلماء المتصوفين هم الذين لقبوا زروقاً «بمحتسب العلماء الأولياء »— فلا يقدح في ذلك من شذ عنهم .

وقد تورك ابن عجيبة على زروق في شرح النونيـة مرة أخرى عند نقله سانحة من سوانحه فقال : وانما تعطل الفتح على الشيخ زروق لقلة صحبته لشيخه الخضرمي فقد قال عن نفسه انه صحبه أولاً سبعة أشهر

أو نحوها ثم انفصل عنه ثم رجع لزيارته فبقي معه نحو ثمانية أشهر فكان المجموع من صحبته خمسة عشر شهراً أو نحوها ، قال وانتفعت بها انتفاعاً لا يخفي اهـ . قلت هذه المدة لا تسلخ المريد عن طبعه بالكلية ولا تخرجه عن علمه وعوالمه لا سيما وقد كان متغلغلاً في العلوم النقلية والعقلية فلا يسلخه منها إلا طول الصحبة بالصدق والخدمة والتجرد التام كما هو مجرب في شأن أمثاله،وقد كان شيخه يكاتبه بشيء من الحقائق فلم يهتد اليها لأنها لا تؤخذ بمجرد العلم وإنما تؤخذ بالسراية مع تحقق الصدق والتصديق ، واعلم ان كثيراً من العلماء صحبوا المشائخ العارفين ولم ينالوا من حقائقهم شيئاً لأنهم كانوا يصحبونهم على نظر نفوسهم لا على نظر المشائخ فإذا أمروهم بشيء أو نهوهم عن شيء وزنوه بميزان (شريعتهم) فما وافق نظرهم قبلوه وما خالفه ردوه فبقوا مع أنفسهم ولم يغرقوا في بحر أسرارهم والله أعلم » .

انتهى كلام ابن عجيبة ، وفيه تحامل كبير على زروق وعلى علماء الاسلام جملة وهو كلام لو لم يختم بجملة والله أعلم لكن فيه درك عظيم على قائله ، ويهمنا منه الآن ما يتعلق بزروق فقد زعم انه تعطل عليه الفتح آخذاً من السانحة التي أوردها له وهي كما تأتينا في أعقاب ترجمته انما تدل على الجهود التي بذلها زروق في الوصول إلى المعرفة ولا دلالة لها مطلقاً على ما فهمه منها ابن عجيبة ، وتعليله لتأخر الفتح بقلة مدة الصحبة ليس بحجة عندهم ، فقد عهدناهم يقولون ان فلاناً نال من فلان بمجرد لقاء قصير أو بنظرة واحدة ، وكثيراً ما يمثلون ذلك بمن جاء بفتيلة منعمة دهناً فاقتبس من المصباح وأشرق نوره في الحال. وكون التغلغل في العلوم النقلية والعقلية عقبة في طريق الفتح هو مما يختلف فيه نظرنا مع ابن عجيبة وأمثاله ممن يقولون بهذا القول ، فنحن لا نرى فتحاً حقيقياً حصل أو يحصل لأحد إلا مع هذا التغلغل في العلوم،واليك المثال في أقطاب الصوفية أنفسهم كالجيلاني والحاتمي وابن الفارض وابن سبعين

وغيرهم ممن لم يشتهر أمرهم في هذا الشأن حتى رسخ قدمهم في العلوم، وابن عجيبة نفسه لو لم يكن ذا باع مديد في العلوم لما أدرك ما أدرك من هذا المقام .

وقد كان زروق ذا حساسية مرهفة وتذوق لكلام القوم يشهد بـه تنزيله للنصوص وتعقبه لما فيها من مآخذ وطرحه للحشو واهتباله بالجواهر دون الاعراض فضلاً عن وزنه للخواطر بميزان الشرع وأخذه بالحيطة في مجال القول والعمل وانما أعانه على ذلك تمكنه من العلوم العقلية والنقلية وسلوكه للطريق سلوك الحذر اليقظ الذي أخذ الاهبة لكل طارىء واستعد لكل ما يفاجيء ، فلم يكن وصوله للحقيقة من ظن وتخمين ، بل عن طريق المعرفة واليقين ولعمري ان هذا لهو الفتح المبين .

فإن يكن المهدي من بان هديه فهذا وإلا فالهدى ذا، فما المهدي

من اخذ عنه من المشايخ وثناء العلماء عليه :

وبعد هذا لا نرى داعياً لذكر ما كان لزروق ومـا لا يزال له من مقام كبير بين طوائف الصوفية وخاصة الشاذلية منهم فقد أقامه الجميع مقام الحكم الذي ترضى حكومته وأقروا له بالإمامة وأثنوا عليه الثنـاء العاطر وتداولوا عهده وتلقوا كلامه بالقبول ورووا وظيفتـه وهي كلها اذكار نبوية كابراً عن كابر ، وهذا فضلاً عن مشائخ العلماء وكبـار الفقهاء الذين أخذوا عنه بالمشرق والمغرب .

فمنهم الإمام القسطلاني والحطاب الكبير والخروبي الصغير وشمس الدين وناصر الدين اللقانيان وزين الدين القسنطيني نزيـل مكة والشيـخ عبد الوهاب الشعراني والعارف أبو الحسن البكري وهما من عمد أهل التصوف وغيرهم ، وذكره وارد في سند الطريق في مرآة المحاسن وغيرها .

وذكر صاحب طبقات الشاذلية المسماة بجامع الكرامات انه لما قدم مصر وسمعت بقدومه العلماء والفضلاء من أهلها وفدوا عليه ، ومثّلوا بين يديه ، وكان يحضر درسه في الأزهر الشريف زهاء ستة آلاف نفس من مصر والقاهرة واحوازها وتولى إمامة المالكية وصار استاذ رواقهم ونصبوا له كرسياً عالي الأركان بديع الاتقان صار يجلس عليه للافادة ، قال : وهذا الكرسي موجود الى وقتنا هذا برواق السادة المغاربة بالأزهر الشريف ، وكانت له صولة ودولة عند أمراء المصريين والقبول التام عند الخاص منهم والعام .

ولعل هذا في غير القدمة الأولى التي قدمها الى مصر وكان فيها لا يزال بصدد الأخذ عن أعلامها ، يدل عليه قول السخاوي في «الضوء اللامع» بعد ان ذكر نشأته وقراءته بفاس، (وارتحل الى الديار المصرية فحج وجاور بالمدينة وأقام بالقاهرة نحو سنة مديماً للاشتغال ، وقرأ علي بلوغ المرام وبحث علي في الاصطلاح بقراءته ولازمني في أشياء وأفادني جماعة من أهل بلاده والغالب عليه التصوف ، وقد تجرد وساح وورد القاهرة بَعْد الثمانين ثم تكرر دخوله اليها ولقيني بمكة في سنة أربع وتسعين وصار له أتباع ومحبون وكتب على حكم ابن عطاء الله) الخ .

وفي شذرات الذهب قال المناوي في طبقاته وهو يعني زروقاً : (عابد من بحر العبر يغترف وعالم بالولاية متصف،تحلى بعقود القناعة والعفاف، وبرع في معرفة الفقه والتصوف والأصول والخلاف ، خطبتة الدنيا فخاطب سواها ، وعرضت عليه المناصب فردّها وأباها) ، وهذا مما يؤيد ما قاله صاحب طبقات الشاذلية عما كان له في مصر من نفوذ وجاه عند خاصتها وعامتها .

استقراره أخيراً في طرابلس الغرب ووفاته بها :

ثم انه زهد في ذلك كله ورحل إلى قطر طرابلس واستقر منه بمصراتة بجهة تيكران منها حتى مات ، قال ابن غلبون في تاريخه: وكان استوطنها وانخرط في سلك أهلها وتزوج بها من أولاد الشيخ الجعافرة وولد له منها وبقوا بعد موته ثم لحقوا به ، وليس له بها نسل ومقامه مشهور ، وتولى خدمته وأوقافه قوم من أهل سرت كانوا في سالف الزمن لهم تشبّه بالصالحين ونشأ من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات .. الخ .

وقد زار الشيخ أبو سالم العياشي مقام المترجم في طريقه الى الحج وتحدث عن ذلك في رحلته بقوله : ومن الغد ارتحلنا ونزلنا بزاوية الشيخ المحقق العالم العلامة العارف بالله الدال على الله صاحب العلمين ومحقق النظرين ومحصل المذهبين ومرتضي الفريقين مقتدي أهل العلم الباطن ومتبوع أهل الظاهر وينبوع الأسرار في سائر المظاهر قطب مغربنا وإمام أئمتنا سيدي أبي العباس أحمد بن أحمد زروق البرنسي الفاسي حقق الله اليه نسبتنا وخلص في محبته سريرتنا آمين ، وكان نزولنا بزاويته صبيحة يوم الجمعة وزرنا قبر الشيخ بما اقتضاه الوقت من أدب ووقار وذل وانكسار وصلينا الجمعة بالمسجد الجامع وهو الذي كان يصلي فيه الشيخ وخطب امام المسجد من ورقة وليته أحسن القراءة منها فإنه كان يتوقف حتى في آيات من القرآن العظيم وأسفت لذلك المكان مع شرفه بجوار الشيخ وكونه واسطة البلد كيف يسند الأمر فيه إلى غير أهله ، ويوضع في غير محله ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ثم ذكر العياشي بعد ذلك ما يفيد ان الشيخ رحمه الله لم يكن هو باني الزاوية على ما أخبره به قَيِّمُها أبو العباس أحمد بن عبد الرحيم خديم الشيخ قال :

(لطيفة) وقد أخبرني سيدي أبو العباس المذكور ان جده الأعلى سيدي أحمد الذي كان خديم الشيخ قال للشيخ في حياته الا نبني هنا زاوية ونتخذها أوقافاً ؟ فقال له يا أحمد نحن لا تفوح رائحة مسكننا إلا بعدما نتسوس تحت التراب ، ثم بعد موته وكثرة الواردين والزائرين وانتشار صيته في مشارق الأرض ومغاربها بنى تلميذه المذكور المسجد بإزاء قبره وسكن عنده بعد موته بعشرين سنة .

قلت وهذا هو اللائق بعلم الشيخ وعمله وتمسكه بالسنة قولاً وفعلاً واعتقاداً فرحمه الله ورضي عنه وجازاه عن ايمانه واخلاصه الجزاء الأوفى .

وكانت وفاته سنة ٨٩٩ في صفر .

تراثه المادي والأدبي :

وذكر العياشي أيضاً انه وقف على ورقة فيها زمام تركة الشيخ وعدد ورثته فساقها باللفظ قال: « لما اشتملت عليه من الفوائد ، منها استفادة عدد أولاده وأين استوطنوا بعده فإني لم أجد ذلك بعد الفحص الشديد عنه ، ومنها التأسي به في قلة ما خلفه من الدنيا مع كونه ذا أولاد ونساء في بلد يشق فيها العيش ولا يعوزه لهم لو شاء لانتشار صيته وخدمة الدنيا وأهلها له ومع ذلك لم يخلف إلا ما ستراه » . وخلاصة ما في هذه الورقة انه توفي عن زوجتين وأربعة أولاد كل منهم يسمى أحمد ويتميز بكنية وبنت واحدة اسمها عائشة. وخلف نصف فرس وكانت شركة مع الغير وبرنساً أبيض وجبّة صوف وثوباً آخر وسبحة كانت لشيخه الحضرمي وأربعة عشر سفراً وكناشة الخ فانظرها ان شئت في الرحلة العياشية .

هذا هو تراث زروق المادي فليخجل عنـــد ذكره كل شيخ يزعم التصوف وهو أغنى من قارون ، أما تراثه الأدبـي فمجموعة من الكتب في الفقه والتصوف مؤسسة القواعد محررة المقاصد يميل فيها إلى الاختصار لكونه ممن ألغى فضول القول ، ويأتي فيها باللباب من العلم الذي يتناوله لأنه كان أنصح من أن يشغل قارئه بالقشور وليس قارئه إلا طالباً متفقهاً في الدين أو مريداً مترقياً في مقامات اليقين ولا أحـق بالنصح منهما . واليك حلقات هذه السلسلة الذهبية قبل أن نأتي بشذرات منها تقر أعين الناظرين ولعل الشيخ أحمد بابا في نيل الابتهاج كان أحصى لمؤلفاته من غيره فلنعتمد قوله في هذا الصدد ونصه : « وأما تآليفه فكثيرة يميل فيها الى الاختصـــار مع التحرير ولا يخلو شيء منها عن فوائـد غزيرة وتحقيقات مفيدة لا سيما في التصوف فقد انفرد بمعرفتـه وجودة التأليف فيه ، فمنها شرحان على الرسالة وشرح ارشاد ابن عسكر وشرح مختصر خليـــل وشرح الوغليسية وشرح القرطبية وشرح الغافقية وشرح العقيدة القدسية للغزالي ونيف وعشرون شرحاً على الحكم وشرحان عـــلى حزب البحر وشرح الحزب الكبير لأبـي الحسن الشاذلي وشرح مشكلاته وشرح الحقائق للمقري وشرح قطع الششتري وشرح الأسماء الحسنى وشرح المراصد في التصوف لشيخه ابن عقبة والنصيحة الكافية لمـن خصه الله بالعافيـــة ومختصره وأعانة المتوجه المسكين على طريق الفتح والتمكين وكتاب القواعد في التصوف وهذه الثلاثة في غاية النبل والحسن ، لا سيما الأخير منهـا لا نظير له ، وكتاب النصح الأنفع والجُنة ، للمعتصم من البدع بالسنة وكتاب عدة المريد الصادق من أسباب المقت ، في بيـان الطريق وذكر حوادث الوقت ، كتاب جليل فيه مائة فصل بين فيه البدع التي يفعلها فقراء الصوفية . وله تعليق على البخاري قدر عشرين كراسة اقتصر فيه على ضبط الألفـــاظ وتفسيرها ، وجزء صغير في علم الحديث ، وله رسائل كثيرة لأصحابه مشتملة على حكم ومواعظ وآداب ولطائف التصوف

مع الاختصار قل أن توجد لغيره ، وبالجملة فقدره فوق ما يذكر ومن تفرغ لذكر حاله وفوائده وحكمه ورسائله جمع منها مجلداً .. وهو آخر أئمة الصوفية المحققين الجامعين لعلمي الحقيقة والشريعة » .

ويزاد على ما ذكره كناشته التي تعد من أحفل كتبه بالفوائد التاريخية وكثيراً ما ينقل عنها الشيخ أحمد بابا نفسه وغيره وتقدم ذكرها في زمام تركته . وله فهرست ذكرها ابن القاضي في ترجمته من درة الحجال وله أيضاً مما وقفت عليه ولم يذكره رسالة الأصول البديعة والجوامع الرفيعة ،ورسالة في أصول الطريق نظمها الشيخ أبو سالم العياشي وشرحها تلميذه الخروبي ،ونظم فصول السلمي في عيوب النفس ،وشرح المباحث الأصلية ،وكتاب لم يسم في علاج ادواء القلب – إلى غير ذلك .

كتابه عدة المريد وقيمته العظيمة :

وكتبه وان كانت كلها محررة مفيدة الا أن عيونها هي الثلاثة التي ذكرها صاحب نيل الابتهاج ويزاد عليها كتاب عدة المريد الذي لا نظير له في النضح عن التصوف والدفع في وجوه ادعيائه بالحجة والبرهان ، وهو في نظرنا عديل كتاب تلبيس إبليس لابن الجوزي وربما فاقه لاختصاصه بهذا العلم ولمكانة صاحبه عند المتصوفة أنفسهم فلا يمكن أن يقدحوا فيه بما يقدحون به في تلبيس إبليس وانظر ما قاله اليوسي في المحاضرات بصدد الانكار على أهل الوقت فانه لم يجوزه إلا للراسخ في العلم والعمل والانصاف كمترجمنا وهذا نص كلامه مختصراً :

« وأما استنقاص أهل الزمان على ما مر فلا شك انه لا يحرم إذ لا يدخل في الغيبة المحرمة حيث لا يكون التعيين ... نعم ذكر ما يقع منهم من المناكر بالتنصيص بقصد الاحتراز مع الانصاف كما فعل

أبو العباس زروق رضي الله عنه في النصح الأنفع وفي عدة المريد نافع مفيد غير انه صعب مفتقر إلى تحقيق المدارك وتضلع في العلوم وتجربة تامة » الخ . وناهيك بها من مثل اليوسي .

وها نحن أولاً نستعرض من كتابه المذكور بعض الفصول للتعريف بقيمته ولتتمة التعريف بمؤلفه أيضاً ، وقد صدره بكلمته لبيان الغرض من تأليفه هذا نصها :

« ليعلم الناظر في هذا الكتاب ، المتأمل لما فيه من حق وصواب ، انا لم نقصد به الطعن على الناس ولا القدح فيهم ، ولا الاشتغال بمساويهم ولا اظهار عيوبهم ، ولا أردنا الاستظهار بالمزية عليهم، وإنما قصدنا به التحذير من الوقوع فيما حذرنا منه ، والتحرير لما نبهنا عليه ، ليكون عدة للصادق في دينه ، واعانة للمحقق في يقينه ، ورحمة للمسكين في حاله ، فمن قصده لشيء مما قصدناه به فالله المسؤول في اعانته ونفعه ، ومن قصدَه لغير ذلك فالله المستعان على اتلافه ومنعه ، وان يعمي عنه من يريد به هتك أستار الناس ويريد به اظهار اللمس والالتباس ، ومن قصده لذلك فالله حسيبه وسائله ومتولي الانتقام منه لأن من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته ، والمؤمن يلتمس المعاذير والمنافق يتتبع العيوب والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه. ويعلم الله لولا الشفقة على الاخوان الصادقين ما كتبت منه حرفاً مع ما أخذ على من علم شيئاً أن يبينه ولا يمكنه ، وما ورد من الوعيد في سكوت العالم عند ظهور البدع مع ما انضم إلى ذلك من أسباب خاصة وعامة ، وعلى الله المعتمد في عموم النفع به وان يجعله رحمة وبركة حيث ما حل .

ثم أرغب لمن كتبه أن يكتب هذه المقدمة في ضمن نسخته لنبرأ من جهل الجاهلين وعلى الله ثوابه .

ولسنا بحاجة إلى التنبيه على مـــا يفيض به هذا التصدير مـــن روح الانصاف والنصيحة والاخلاص . فتلك شيمة زروق التي عرف بهـا في كتبه وأبحاثه وآرائه بعامة، وهاك الآن الفصل الأول من الكتاب وهو في تحقيق معنى البدعة وتقسيمها قال :

حقيقة البدعة :

« (فصل) في حقيقة البدعة وخواصها وأحكامها : أما حقيقـــة البدعة فشرعاً احـــداث أمر في الدين يشبه أن يكون منـــه سواء كان بالصورة أو بالحقيقة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» وقوله عليه السلام «كل محدثـة بدعة كما تقدم» ، وقد بين العلماء رضي الله عنهم ان المعنى في الحديثين المذكورين راجع لتغيير الحكم باعتقاد ما ليس بقربة قربة لا مطلق الاحداث اذ قد تتناوله الشريعة بأصولهـــا فيكون راجعاً اليها أو بفروعها فيكون مقيساً عليها قالوا : وبحسب هذا فلا تكون البدعة إلا محرمة أو مكروهة لأنها ان قويت شبهتها لا يصح أن يبلغ بها التحريم وان ضعفت شبهتهـا جداً كانت محرمة لا سيما ان كانت في مقابلة منصوص عن الشارع أو مخالفة لأصل الملة أو خارجة عن قواعد الأحكام الشرعية ، قَالَ المحققون : وإنما قسمها بعضهم لأقسام الشريعة اعتباراً بمطلق الإحـداث ومن حيث اللغة،ومنه قول عمر رضي الله عنه في شأن التراويح:نعمت البدعة هـذه فسماها بدعة من حيث صورة اثباتها وإلا فهي سنة بفعل النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاث ليال من رمضان في حياته ، ثابت اقامتها بقولـــه عليـــه السلام : اني خشيت أن يفرض عليكم ، فنبه على العلة ليشعر بثبوت الحكم عند ارتفاعها كما أثبته عمر رضي الله عنه بإجماع من الصحابة في قبوله. فان قلت كيف تكون البدعة المكروهة ضلالة مع ان المكروه

من قبيل الجائز والنبي صلى الله عليه وسلم قد حكم على كل بدعة بأنها ضلالة ؟ قلت الكراهة مصروفة للعمل بها ، واحداثها حرام لأنه افتيات على الشارع وتقدم بين يديه وتغيير لأحكامه مع وجود شبهة منه .

ثم من خواص البدعة ثلاثة :

أحدها انها لا توجد غالباً الا مقرونة بمحرم صريح أو آيلة اليه ، أو يكون تابعاً لها . ومن تأمل ذلك وجده في كل ما قيل فإنه لا ينخرم بحال كما ننبه عليه ان شاء الله تعالى .

الثاني انها لا توجد غالباً الا في الأمور المستغربة غير المألوفة في الدين وهي في الكيفيات من المندوبات وتوابع الأعمال وما تميل اليه النفوس وتستحسنه كالذكر والتلاوة والصلاة والصوم بما يدخلون عليها من الكيفيات ونحوها والسلوك ونحو ذلك – فتأمله .

الثالث انها لا توجد غالباً الا مستندة لوجه من الشريعة أو معنى من الحقيقة يلتبس على قليل العلم فيتحير أو يسلم ويروج على الجاهل فيظنه ديناً قيماً من حيث لا يعلم ، وما غره في ذلك إلا شبهة الأصل وتسليم من يعتقد فيه العلم والفضل ، ولكن لكل شيء ميزان يظهر به الحق من الباطل يعرفه العالم وينفيه الجاهل فيكون ضالاً بفعله مضلاً بدعوى الخلق اليه غير معذور في أمره لعدم تبصره اذ الدين مبني على التبصر . وبالله التوفيق . »

ولا يخفى تحرير هذا الفصل وانه على اختصاره جمع بين تحقيق النظر في معنى البدعة وتقسيمها الصحيح إلى قسميها الطبيعيين الحرمة والكراهة ولم يجار اصطلاح الفقهاء في عصره على تقسيمها إلى أقسام الحكم الشرعي الخمسة،وان بين وجهة نظرهم في ذلك التقسيم ودليله ثم عرض لما يتوهم من أن البدعة المكروهة لا حرج فيها فبين ان الكراهة انما تتعلق بالعمل

بها واما أصل أحداثها فحرام وبذلك حسم المادة في أمر الابتداع وأغلق الباب في وجه المبتدعين ومن ثم تخلص إلى الكلام على خواص البدعة بما لم يدع في أمرها اشتباهاً. وهكذا حرر هذا الفصل تحرير الجوهر وركزه تركيزاً موعباً بحيث جمع فأوعى .

وهاك فصلاً آخر بيّن فيه الأسباب التي تدعو الى الابتداع وخاصة في الطريق وهو نظير سابقه تحريراً وتركيزاً ، قال :

الابتداع وأسبابه :

«(فصل) في أصل ظهور مدعي التصوف في هـذا الزمن بالبـدع واتباع الناس لهم عليها ، فأما ظهورهم بالبدع فله أصول ثلاثة :

أولها نقص الايمان لعدم العلم بحرمة الشارع وفقد نور الايمان الهادي إلى اتباع الرسول عليه السلام قال الله تعالى « وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » وقال أحمد بن حضرويه رضي الله عنه الله الدليل لائح والطريق واضح والداعي قد أسمع فما التحير بعد هذا إلاّ من العمي وقال ابن عطـاء الله رضي الله عنـه في حكمه لا يخاف عليك ان تلتبس الطرق عليك وانمـا يخاف عليك من غلبـة الهوي عليك وقال أيضاً تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال قال بعضهم نحت الجبال بالأظافر أيسر من زوال الهوى اذا تمكـن قال الله تعالى أفرأيت من اتخذ إلاهه هواه وأضله الله عـلى علم الآية وقوله تعالى فمن يهديه من بعد بالله يعني ان الحيل والأسباب لا تفيد في هدايته لتمكن الباطل من نفسه وفقدان نور الايمان من قلبه «ومن لم يجعل الله له نور فما له من نور ».

الثاني الجهل بأصول الطريقة واعتقاد ان الشريعة خلاف الحقيقة وهذا

هو الأصل الكبير في ذلك وهو من مبادىء الزندقة ومنه خرجت الطوائف كلها وصار الفروعي الجامد لا يتوقف في سب الصوفيـــة ، والمتصوف لا يتوقف في النفور من العلم وأهله ويخالف ظاهر الشريعة في أمره ويرى ذلك كمالاً في محله حتى لقد سمعت من بعض من تفقر من طلبة الوقت انه سمع حكاية من حكايات الخارجين أوجبت أثراً في الوجود فنطق ناطق زندقته وجهله بأن قال ظاهر الشريعة حرمان ، وهذا والعياذ بالله كفر وضلال انجرّ له من جهله بالطريقة واعتقاده الفرق بين الشريعة والحقيقة وهذا هو الأصل الذي بنى عليه المارقون أصولهم واستظهرت الطوائف بأعمال خارجة عن الدين وأحوال موافقة للمارقين فحمل الصادق عـــلى الكاذب والمصيب على الخائب ، ووقع الكل في جهالات لا يمكن تفصيلها ولا ينضبط تأصيلها. ودفع ذلك لا يكون الا بتقرير أصول القوم وسنفرد له فصلاً بعد ان شاء الله .

الثالث حب الرئاسة والظهور مع الضعف عن أسبابها والقصور فيضطرهم ذلك لاحداث أمور تستميل القلوب لكونها مجهولة على استحسان الغريب مع جهلها بمـــا يشين ويريب وحرصها على الخير وظهور هذا الشخص بصورة ذلك وحقائق منه مع ما يجري على يديه من خوارق شيطانية أو يبدو لتابعيه من لذة نفسانية أو يدركه من أذواق طبيعية يظنها فتوحات وأسباب وصول فينبذ لها الفروع والأصول مع مـــا يعينه على ذلك من احتقار الأمور المألوفة واعتقاده ان المقام العجيب لا يدرك الا بالأمـــر الغريب،وان العبادة في صورها ووجوهها لا تفيد المقصود الا بإضافة أمر اليها فينقاد لذلك عند ظهوره ويعمل به فيجتهد الأمر له بذلك ويتقوى عليه بما ظهر له من ذلك وما هو الا الجهل والانقياد للوهم وعدم التثبت والفهم نسأل الله السلامة بمنه وكرمه» .

رأيه في المهدي المنتظر :

وهذه جمل من فصول مِنْهُ تبين نظره في أشياء مما ضلت فيه آراء القوم ، فمن ذلك قوله في المهدي المنتظر :

« هذا مع ان كثيراً من العلماء يقولون بأن الفاطمي قد انقضى زمانه وانه عمر بن عبد العزيز أو غيره على اختلافهم في ذلك ، والحق ان الأمر فيه مبهم وان الاشتغال به مما لا ينبغي لاشتباه الأمر واضطرابه مع عدم الاضطرار اليه ، وهب انه نزل بباب المدينة التي أنت فيها أليس في عنقك بيعة أميرها فلا يحل لك الخروج اليه لما في رقبتك من حق أميرك ، هذا ان تحقق فما ظنك والأمر متوهم الصحة في أصله غير متحقق التأخير في وقوعه».

الفقيه والصوفي :

ومن قوله فيه ، في نسبة الفقه من التصوف : «قالوا وما مثل الفقيه الا كبواب الملك والصوفي المحقق صاحب سره فإذا حدث الصوفي عن خبايا بيت الملك نادى عليه الفقيه انما أنت سارق أو كذاب أو متجاسر ، فإن أتى بأمارة من الملك والا فحجة البواب عليه قائمة وانكاره صحيح ، فمن ثم صح انكار الفقيه على الصوفي ولم يصح انكار الصوفي عليه فاعرف ذلك » .

رأيه في كتب الحاتمي ومشاكلها :

ومن قوله في كتب الحاتمي ومن على شاكلته في أحد الفصول منه

« فأما كتب الحاتمي وابن سبعين وابن الفارض وأبـي العباس البوني ومن جرى مجراهم فلها رجال ، لهم في الحقائق مجال ، وعندهم في التمييز مقال ، فلا يشتغل بها في البداية الا غوي ولا في النهاية الا خلي ولا في التوسط الا ذكي يأخذ بما بان رشده ويسلم ما وراء ذلك ليسلم من آفاته وما هو الا كما قيل :

من تحلى بحلية ليس فيه فضحته شواهد الامتحان

أعاذنا الله من البلاء بمنه » .

أحزاب ابن سبعين ودعوات البوني :

ومثله قوله في أحزاب ابن سبعين ودعوات البوني في أحـد فصول الكتاب ونصه :

« (فصل) في أمور أولع بها بعض الناس وفيها مغمز ما، منها أحزاب الشيخ أبـي محمد عبد الحق بن سبعين وهي محتوية عـلى حقائق ودقائق وأمور عالية بعبارات فائقة وشقاشق عظيمة بعضها في الاضمار وبعضهـا خارج عنه ، فلذلك وجب على الضعفاء اتقاؤها وكان التسليم فيها أولى من العمل بها الا حزب السلام له وفيه ما فيه للعدول عن الألفاظ الشرعية الى عبارات أخرى لا ندري ما قصد بها ان لم يكن الايقاع في النفس، وبالجملة فذلك واقع له بحسب حاله ومقامه. ونحن لا نأخـذ إلا ما جمع العبودية والأدب والتأثير لا غير ذلك فافهم. ومنها دعوات البوني وأقسامه المرتبة على الساعات وغيرها، وقد نص العلماء على ان ذلك بدعة مكروهة ويعنون للعالم به فأما غيره من الجهال فلا حديث عليه وهو ممنوع منـه بكل حال » .

كتب الصلوات المتداولة :

ومن هذا القبيل قوله في كتب الصلوات المعروفة من فصل آخر :
« ومن ذلك تصنيف بعض الناس في الصلاة عليه صلى الله عليـــه وسلم بكيفيات يعتمدها ويأتي فيها بألفاظ مستغربة وأنواع منتخبة تألفها نفوس العوام وتتحرك بها نفوس الغافلين للصلاة عليه صلى الله عليـــه وسلم في الجملة ، والأولى بأهل التوجه الاقتصار على الألفاظ الواردة عنـه صلى الله عليه وسلم فان الخير كله في الاتباع والفتح الكامل في التقيد بألفاظه عليه الصلاة والسلام فلا تعدل بها شيئاً ولو قَلَّتْ فقليلها كثير ومعناها كبير » .

نصيحة لأتباعه :

وأخيراً استمع اليه فيه وهو يحذر أتباعه من الاقتداء به في أمور ربما صدرت منه عن غير تعمد ولا اصرار ، ولكـن النصيحة التي جعلهـــا هجيراه وهضم النفس الذي هو ديدنه أمليا عليه هذه الجملة :

« وما زلت أحذر الأصحاب من الاقتداء بـي في خمسة أمور :

أحدها – العمل بالسماع وأقبِّحه في عيونهم .

الثـاني – التوسع في الأكل صفة ومقداراً فان ذلك اساءة أدب .

الثالث – مخالطة كل أحد ومباسطته وذلك هجنة وقلة مروءة .

الرابع – كثرة المزاح والانبساط والتوسع في الكلام لأنـــه يجر الى الشر والنقص .

الخامس– النظر في كتب الرقائق والعمل عليها دون غيرها .

فاني لا أفعل ذلك والله عن روية ولا اختيار وما كتبت التحذير منه ها هنا إلا لكيلا أجعل حجة فيه وبالله التوفيق » .

هذه فصول ونقول من كتاب عدة المريد تقفك على أهميته وتتعرف منها آراء زروق في المسائل الصوفية الدقيقة ، وهي آراء موزونة بميزان الشرع ترد على التصوف الاسلامي اعتباره وتعود به سيرته الأولى التي كان عليها في عهد الجنيد وطبقته من الصوفية الأخيار .

آراءه وأقواله في السلوك والطريق من كتابه القواعد :

وقد احتوى كتابه قواعد التصرف الذي يعد حجة في هذا الباب على كثير من هذه الآراء التي نظن انه جردها من كتابه الأول وأودعها في القواعد كما احتوى على حقائق أخرى لها أهمية كبيرة في الموضوع ، وتتميماً للفائدة نورد بعضها هنا. فمن ذلك قوله :

لا يصح انكار الصوفي على الفقيه :

« (قاعدة) الفقه حكم عام في العموم لأن مقصوده اقامه رسم الدين ورفع مناره واظهار كلمته؛ وحكم التصوف خاص في الخصوص لأنه معاملة بين العبد وربه من غير زائد على ذلك . فمن ثم صح انكار الفقيه على الصوفي ولا يصح انكار الصوفي على الفقيه ولزم الرجوع من التصوف الى الفقه والاكتفاء به دونه . ولم يكف التصوف عن الفقه بل لا يصح دونه ولا يجوز الرجوع منه اليه إلا به وان كان أعلى منه رتبة فهو أسلم وأعم منه مصلحة ولذلك قيل كن فقيهاً صوفياً ولا تكن صوفياً فقيهاً . وصوفي الفقهاء أكمل من فقيه الصوفية وأسلم لأن صوفي الفقهاء قد تحقق بالتصوف حالاً وعملاً وذوقاً بخلاف فقيه الصوفية المتمكن من

عمله وحاله ولا يتم له ذلك إلا بفقه صحيح وذوق صريح لا يصح له احدهما دون الآخر كالطبِّ الذي لا يكفي علمه عن التجربة ولا العكس فافهم » .

تحديد ما لم يرد في الشرع بدعة :

ومنه قوله: « (قاعدة) تحديد ما لم يرد في الشرع تحديده ابتداع في الدين لا سيما ان عارض أصلاً شرعياً كصيام يوم لفوات ورد ليلته الذي لم يجعل له الشارع كفارة إلا الاتيان به قبل صلاة الصبح أو زوال اليوم وكذا قراءة الفاتحة قبل الصلاة وتوقيت ورد الصلاة ونحوه مما لم يرد من الشرع نص فيه لا ما ورد فيه نص أو اشارة لصلاة الرواتب واذكار ما بعد الصلاة وقراءة القرآن وصيام النفل ونحوه – فافهم » .

الشفاعة والوسيلة :

ومنه قوله : « (قاعدة) لا يشفع عند الله أحد إلا بإذنه وقد أمر بابتغاء الوسيلة اليه قيل هي لا إله إلا الله وقيل اتباع رسول الله وقيل اتباع في العموم فيتوسل بالأعمال كأصحاب الغار الذين دعا أحدهم بأفضل عمله وبالأشخاص كتوسل عمر رضي الله عنه بالعباس رضي الله عنه في استسقائه وجاء الترغيب في دعاء المرء لأخيه مطلقاً وقال عليه السلام لعمر رضي الله عنه حين ذهب لعمرة له اشركنا في دعائك يا أخي وذلك للتعليم وإلا فهو عليه السلام وسيلة الوسائل وأساس الخيرات والفضائل. وقد روي عن مالك لا يتوسّل بمخلوق أصلاً وقيل الا برسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا كما قال أبو بكر بن العربي في زيارة المقابر: لا يزار لينتفع به إلا قبره عليه السلام » .

انما العلم بالتعلم :

وقوله منه : « (قاعدة) لا علم الا بتعلم عن الشارع أو من ناب منابه فيما أتى به اذ قال عليه السلام انما العلم بالتعلم وانما الحلم بالتحلم ومن طلب الخير يُؤته ومن يتق الشر يوقه ، وما تفيده التقوى انما هو فهم يوافق الأصول ويشرح الصدور ويوسع العقول ثم هو منقسم لما يدخل تحت دائرة الأحكام ومنه ما لا يدخل تحت دائرة العبارة وان كان مما تناوله الاشارة ومنه ما لا تفهمه الضمائر وان أشارت اليه الحقائق مع وضوحه عند مشاهده وتحقيقه عند متلقيه وقولنا فيه فهم لاثبات أصله لا غير فاعرف ما أشرنا اليه وبالله التوفيق » .

شذرات من شرحه للمباحث الأصلية :

ومن شذراته القيّمة قوله في شرح المباحث الأصلية تعليقاً على قولهم : من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ،ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ،ومن جمع بينهما فقد تحقق « قلت : تزندق الأول لرفضه الحكمة والأحكام وتفسّق الثاني لخلوه من صدق النية فيما هو به والعمل به وتحقق الثالث لقيامه بكل في محله فمرجع كلام الصوفية في كل باب لأحوالهم والا فلا تنافي بين أقوالهم لمن تأملها وذلك خلاف مذاهب غيرهم فمذاهب الغير يتسلط عليها الإبطال ومذهب القوم يرجع الى وفاق الحال فإن لم يقبل ذلك فليس من مذاهبهم .

منع لبس الخرقة :

ومنها فيه أيضاً « : (تنبيه) الذي ينبغي أن يجزم به في هذا الزمن

منع الخِرَق والدخول عليها مما عليه الناس من الشح والاعتلال في الغالب واذا كان الغدر في النفوس طبعاً فالثقة بكل أحد عجز » .

رتبة العالم لا ترفع عنه الأحكام :

ومنها فيه أيضاً وقد أورده في عدة المريد مختصراً : « سئل شيخنا القوري رحمه الله عن ابن العربي الحاتمي فقال أعرَفُ بكل فن من أهل كل فن . قيل له ما سألناك عن هذا ، قال اختُلف فيه من الكفر الى القطبانية قيل له فما ترجح قال التسليم (قلت) وذلك لأن التعرض للتكفير مخطر واظهار المزية ربما أدى الجاهل للاقتداء به في الواقع أو لاعتقاد ظاهره والله أعلم . ومن هذا النوع ما تقدم ذكره من جواب الإمام محي الدين النووي رحمه الله اذ قال الكلام كلام صوفي (وتلك أمة قد خلت لها ما كسبت) الآية وطولب بعض المغاربة المجاورين بمكة في ضبط معتقده في ابن العربي الحاتمي ليصل بعض القضاة الى عقوبته وأذايته لكونه منكراً له ومكفراً فقال اشهدوا اني مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر وما كان من كلام فلان موافقاً بظاهره للكتاب والسنة فأنا أقول به وما كان على خلاف ذلك فأنا اكل علمه الى أربابه. فلم يجد له سبيلاً . ووقفت لأبي زرعة العراقي على جواب في شأنه وكذا ابن الفارض ذكر فيه كلام الناس من المنكرين وغيرهم ومال الى انه يعترض على الكلام ويترك القائل لاحتمال توبته ونحوها ، وهذا وجه من السلامة أيضاً .

والتحقيق في ذلك ان وجه الشريعة مراعى ومعنى الحقيقة ملحوظ وحرمة العالم لا يرفعها غلَطُه ولا سَهْوُه ولا خَطؤه ورتبته من العلم والدين لا ترفع عنه الأحكام فتُعتبَر عباراتهم من حيث حقائقها بأن

بؤخذ منها ما دلت عليه من المعاني الصحيحة السالمة من الاعتراض وينظر في الألفاظ من حيث ما يقتضيه موجب الحكم في محله فلا يهمل حق الله فيه وحماية الشريعة بالعمل به ولا يتحامل على صاحبه بأن هذا مذهبه لأن دلائل انتفائه عنه أكثر من دلائل ثبوته وحسن الظن في محله مقدم على سوء الظن والمؤمن يلتمس المعاذير والمنافق يتبع العيوب. وهذا الوجه الذي قلنا أسلم الوجوه وأحسنها شرعاً وحقيقة وبالله التوفيق » .

وهـــو كلام نفيس وصدوره من عالم صوفي يزيده نفاسة ولعل غير زروق من المتصوفة الذين أتوا بعده لا يمكن أن يحكي هذا الكلام، وان حكاه فإنما ليطعن به في زروق ... اما ان يكون له رأي من هذا القبيل في الشيخ الأكبر فهذا هو الكفر أو أكبر . وبذلك تعرف مقام زروق في العلم والعمل ورسوخ قدمه في التحقق والتشرع .

ومنها في شرح الحزب الكبير للإمام الشاذلي عند قوله(يا من هو هو يا هو) الخ مبيناً حكم اطلاق هذا الضمير عـــلى الله تعالى ما نصه : « معناه الذي لا يمكن أن يشار لجلالته وعظمته فهو هو ، وللناس في هذا الاطلاق بحث وانكار على الصوفيـة ، والتحقيق ان اطلاقه في محل الاثبات المطلق اساءة أدب وفي مقام التعظيم بأشعاره واستشعاره وشواهده وقرائنه لا بأس به لأهله» .

الحج بالخطوة :

وتعرّض في شرح الوغليسية للحج بالخطوة،الشائع ذكره بين أهـــل هذا الشأن،فتساءل هذا السؤال : « وانظر هل يجب على أهـــل الخطوة (يعني اذا عدمت الاستطاعة) وإذا فعل هل يجزىء أو لا بد من اعتبار فعله عليه السلام » .

قوله في كتب القوم :

ثم الى جانب هذا الاحتياط المشروع نجد له ارشاداً عظيم الفائدة في تمييز كتب القوم لمن يريد أن يتناولها وهو ما أشار اليه في أحد شروحه للحِكَـــم بقوله : « كتب القوم تحتوي على أربعـــة أنواع (التذكير والوعظ) وهو حـظ العوام وللخواص منـــه نصيب ومواده من كتب ابن الجوزي وبعض تعاليق المحاسبي وشيء من كتب الإحيـــاء والقوت وتحبير القشيري وما جرى مجراها (والكلام والأحكام) أي أحكام تصفية الأعمال وتصحيح الأحـــوال من واجب وسنة ومندوب وآداب ظاهراً وباطناً وهو حق المتوجهين من كل فريق وبكل طريق ومواده من كتب الغزالي والسهروردي ونحوهما (والكلام على الأحوال) أي تحقيقهـــا وتحقيق المقامات والأذواق والمنازلات وهـــو نصيب المريدين وربما كان تنبيهاً أو تشويقاً لغيرهم ومواده من كتب الحاتمي في المعامـلات والبوني في المنازلات ونحوهما وفي رسالة القشيري مواضع من ذلك ، وفي الجميع مهاوي فأحذرها لصعوبة فهمها (والكلام على الحقائق) أي المعـــارف والعلوم الالهامية وهو نصيب العارفين المحققين ، وكتاب الحكم محتو على الأطراف الأربعة لا سيما الأخيرين منها فهو جامع لما في كتب الصوفية المطولة والمختصرة مع زيادة البيان واختصار الألفاظ » .

ونظر في القواعد الى هذه الكتب نظرة فنية فصنفها تصنيفاً آخر بحسب الأذواق والميول التي تكون لكل فريق ممن يسلك الطريق فقال :

(فائدة) تعدد وجوه الحسن يقضي بتعدد الاستحسان وحصول الحسن لكل مستحسن فمن ثم كان لكل فريق طريق فللعامي تصوف حوته كتب المحاسبي ومن نحا نحوه وللفقيه تصوف رامه ابن الحاج في مدخله وللمحدث

تصوف حام حوله ابن العربي في سراجه[1] وللعابد تصوف دار عليه الغزالي في منهاجه وللمتريض تصوف نبه عليه القشيري في رسالته وللناسك تصوف حواه القوت والاحياء وللحكيم تصوف أدخله الحاتمي في كتبه وللمنطقي تصوف نحا اليه ابن سبعين في تآليفه وللطبائعي[2] تصوف جاء به البوني في أسراره وللأصولي تصوف قام الشاذلي بتحقيقه ، فليعتبر كل بأصله من محله وبالله التوفيق » .

ونظن ان هذا الاستعراض السريع لآرائه في التصوف والصوفية وأحكامه على أعمال القوم ومنازلاتهم يكفي للدلالة على صدق من لقبه بمحتسب العلماء والأولياء واصابته في هذا اللقب .

وكان بودنا أن نستوعب كل ما تخيرناه من كتبه واستوقف نظرنا من أبحاثه وما استحسناه من رسائله الجامعة إلى اخوانه ومريديه ، ونعقد بحثاً للكلام على طريقته الفقهية وتآليفه في هذا العلم فانه كان علماً من أعلامه ومقامه فيه كمقامه في التصوف يأخذ ويعطي ويقبل ويرد ، ويستشهد بأقوال غير المالكية من علماء المذاهب الأخرى مما يدل على سعة أفقه وكثرة اطلاعه ، ولكن خوف الاطالة والخروج عن المعتاد في هذه الترجمة جعلنا نكتفي بما تقدم ونقف عند هذا الحد في التعريف بعبقرية الرجل والدلالة على مكانته العلمية الكبيرة .

---

١ لابن العربي سراجان : سراج المهتدين وهو من منحى شهاب القضاعي ، وسراج المريدين ولعله المراد هنا .

٢ يعني بالطبائعي صاحب علم أسرار الحروف وطبائعها المتصرف في عالم الطبيعة بها وبما تركب منها من الأسماء على حسب مذهبهم في ذلك .

سانحة من سوانحه :

ثم نختم بهذه السانحة الصوفية الجميلة من سوانحه ، التي كانت محل انتقاد من الشيخ ابن عجيبة على ما سبقت الإشارة اليه وهي قوله : «طفت مشارق الأرض ومغاربها في طلب الحق واستعملت جميع الأسباب المذكورة في معالجة النفس بقدر الإمكان في مرضاة الحق فما طلبت قرب الحق بشيء إلا كان مبعدي ، ولا عملت في معالجتها بشيء إلا كان معيناً لها ، ولا توجهت لارضاء الخلق إلا كان غير موف بالمقصود ففزعت الى اللجأ اليه عز وجل في الجميع فخرجت بفضل ذلك علة رؤية الأسباب ففزعت الى الاستسلام فخرج لي منه رؤية وجودي ، وهو رأس العلل، فطرحت نفسي بين يدي الحق سبحانه طرحاً لا يصحبه حول ولا قوة . فصح عندي ان السلامة من كل شيء بالتبري من كل شيء والغنيمة من كل شيء بالرجوع الى الله في كل شيء اعتباراً بالحكمة والقدرة وقياماً مع الطباع بشواهد الانطباع ، ولما يرد منه تعالى أمراً ونهياً وخيراً وقهراً وعبودية لا تصحبها رؤية ، ورؤية لا يصحبها اعتماد واتساعاً لا يصحبه ضيق وضيقاً لا يصحبه اتساع ممتثلاً في ذلك قول القائل :

قد كنت أحسب ان وصلك يُشتَرى ... بنفائس الأموال والأرباح
وظننت جهلاً ان حبك هيِّن ... تُفنى عليه كرائم الأرواح
حتى رأيتك تجتبي وتخص من ... تختاره بلطائف الأمناح
فعلمت انك لا تُنال بحيلة ... فلويتُ رأسي تحت طيِّ جناحي
وجعلت في عُشِّ الغرام إقامتي ... فيه غُدوي دائماً ورواحي

ولعل ما نقلناه من أقواله في الانكار على أهل الدعاوى العريضة

وردوده لما يصدر عن القوم في شطحاتهم من الكلمات الناشزة عن منهاج الورع هو وحده كاف في رد هذه القصيدة التائية التي ذكر الشيخ أحمد بابا جملة منها في تكميله للديباج وذكرها كلها ابن مريم في بستانه، لأنها مما يخالف طريقته واعتقاده وهضمه لنفسه واهداره للدعاوى بالكلية ، ونظن ان أحد أتباعه المغرورين هو صاحبها وضعها على لسان الشيخ تنفيقاً لها وتدليساً على الضعفاء ، وكم لذلك من نظير .

عبدالله گنون